فكاهات

كفّارة هائلة[1]

كان في باريز سنة ١٨٧٠ طبيبٌ يدعى الدكتور ريبو نحيف الجسم اصفر الوجه اصلع الرأس تنبعث من عينيهِ نظراتٌ جذابة تشفّ عن ذكآءٍ باهر وتنبئ عن دماغٍ قد وعى الطبَّ والفلسفة في وقتٍ معاً وجملة منظرهِ تدلّ على انهُ رجل ميال الى الاحسان وفعل الخير وقد رأى من مصائب البشر وما تبتليهم بهِ الطبيعة من الادوآء والاسقام ما جعلهُ حنوناً شفيقاً يعطف على كل مريض ويميل الى معالجة كل عليل لا فرق عندهُ بين غنيٍّ وفقير . وكان في وقت الحادثة التي نرويها قد احرز ثروةً طائلة غير ان الغنى لم يبطرهُ ولم يبدّل من خلائقهِ كما نرى في كثيرين من الناس بل لم يستفد من غناهُ سوى جماعة الفقرآء فكان اذا دخل منزل مريض فقير يصف لهُ الدوآء ويوعز الى الصيدليّ باعطآئهِ اياهُ مجاناً ثم يترك لهُ شيئاً من المال يستعين بهِ على اتخاذ الغذآء الملائم لهُ وغير ذلك مما تقتضيهِ حالة المريض . وقصارى الكلام انهُ كان يعتبر الفقير مصاباً بمرضين مرض الفقر ومرض الجسم فيعالج المرضين ويداوي الدآءين هذا بطبهِ وذاك بمالهِ

وحدث في احد الايام انهُ دُعي لعيادة طفلةٍ تقيم مع والدتها في غرفةٍ رطبة قليلة النور والهوآء ليس فيها من الاثاث سوى سرير الوالدة ومهد

---

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم خليل افندي الجاويش احد منشئي جريدة الاهرام

الطفلة وكلاهما يدلّ على شقآء مبرّح وفقر مدقع والوالدة فتاةٌ لا يزيد عمرها على العشرين يدل اصفرارها ونحولها على انها من العاملات اللواتي يشتغلن طول النهار لكسب ما يسدّ الرمق ولكنها مع ذلك جميلة الوجه رشيقة القوام ذات شعر ادكن طويل وانفٍ اذلف وفم صغير كانهُ خاتم عقيق وشفتين بلون المرجان . فعند ما دخل الطبيب عليها نهضت لتريهُ ابنتها واخبرتهُ بما تعلمهُ من امر مرضها بجسّ نبضها وعاين لسانها فرأى انها مصابة بحمى خفيفة ناشئة عن زكام شديد فوصف لها بعض ما يوصف في هذه الحال وانصرف على ان يعود في اليوم الثاني بعد ان اراح فكر المرأة من جهة ابنتها . وعند ما وصل الى منزلهِ شعر بحمى وآلام عصبية فلزم فراشهُ وبعث يستدعي احد رصفآئهِ لمعالجته

وفي المسآء اشتدَّ مرض الفتاة الصغيرة فجزعت والدتها ودعت امرأة فاضلة تدعى مدام مورو لتقوم على تمريض ابنتها فلما وقعت عينها عليها التفتت الى الوالدة وقالت لها ان ابنتكِ مصابة بالخناق (الدفتيريا) فيجب ان يستدعى لها طبيب في الحال وانا ذاهبة لاستدعآء الطبيب . ثم خرجت وسارت توًّا الى منزل الدكتور ريبو فعلمت انهُ مريض لا يقدر على مفارقة السرير وأُرشدت الى منزل صديق لهُ يدعى الدكتور مارسل اتيان كان يقوم مقامهُ حينما يمرض او يغيب فاسرعت الى منزلهِ فقيل لها انهُ ذهب لعيادة مريض ولا يعلمون متى يعود فاخبرت خادمهُ بمكان المريضة ودارت تبحث عن طبيبٍ آخر فلم تجد طبيباً يرافقها في تلك الساعة من الليل فرجعت وهي في اشدّ حالات القلق

وفي صباح اليوم التالي اتى الدكتور مارسل وكان الدآء قد غيَّب الفتاة عن رشدها واطار عقل والدتها فاصيبت بنوبةٍ عصبية شديدة فاخذتها مدام مورو الى منزل بعض الجيران وقامت وحدها على تمريض الفتاة . قدنا الطبيب وفحصها فوجدها قد صارت الى حالة لا يكاد يرجى معها شفآء فكتب صفة دوآءٍ لها وذهب هو نفسهُ واتاها بهِ وجرّعها اياهُ فتقيأت ولكنها لم تعد الى رشدها ولم تنخفض درجة حرارتها. ورأى انهُ اذا نقلها الى المستشفى توفيت قبل ان تصل اليهِ فخرج مسرعاً وعاد بانبوبٍ من المطّاط (الكاوتشوك) وادخلهُ في حلق الفتاة ووضع فمهُ على طرفهِ واخذ يمصّهُ بجميع انفاسهِ فاندفقت منهُ موادّ صديدية منتنة وانتعشت الطفلة فعادت تتنفس براحةٍ وسهولة . واعاد الطبيب عملهُ حتى ايقن ان مسالك النفَس قد نظفت من كل مادّة فاسدة فكوى اطراف الحلق ليزيل الاغشية الكاذبة ووصف لها شراباً مسكناً للتشنج العصبي ووضعها على سريرها فرحاً مسروراً ثم تمضمض بماءٍ ممزوج بالخلّ وغسل وجههُ ويديهِ . ولما فرغ قالت لهُ مدام مورو هل بقي من خطرٍ على الفتاة فاجاب اما الآن فلا الا اذا طرأ عليها شيءٌ جديد يتلف ما عملتهُ . فقالت شكراً لك وصان الله شبابك فقد انقذت من الموت فتاةً لطيفة وحيدة لوالدتها ولا شك في ان هذه الوالدة ستطير فرحاً حينما تعلم بان ابنتها مارسل قد نجت من الخطر

فقال الطبيب وقد ظهرت عليهِ امارات الدهش وهل اسم الفتاة مارسل. قالت نعم. فدنا من سريرها وتفرس في وجهها وتأمل هنيهةً ثم قال وقد برقت اسرّة وجههِ وارتعش بدنهُ واظن ان اسم والدتها جنثياف .

فقالت نعم جنفياف لكلير . فملأ الدمع جفونهُ وقال لقد اصبت اذاً واين هي والدتها . فقالت عند الجيران واخبرتهُ بما كان من امرها فزادت دهشة الطبيب وصمت صمت من يفكر في امرٍ خطير ثم وصف دواءً ودفع الورقة الى المرأة ومعها ورقة مالية بقيمة مئة فرنك وقال احضري هذا الدواء واسقي منهُ والدة الفتاة جرعة كل ربع ساعة الى ان تنام وعندما تستيقظ يتولاها البكاء وتطلب ان ترى ابنتها فقولي لها ان حالتها احسن وعندما تراها اخبريها انها خلصت من الخطر ثم قولي لها انني سازورها غداً واما الفتاة فلا تسقيها سوى لبنٍ فاتر . قال هذا وسار الى منزلهِ تعباً منهوك القوى ولبس ردآء النوم واستلقى على مقعدٍ ليستريح ولكنهُ شعر بحمّى لم تدعهُ ينام واخذهُ صداعٌ في رأسهِ ودوارٌ شديد ثم اخذ ينتفض من الحمى فانتقل الى سريره واكثر من الاغطية فوقهُ ليستردّ الحرارة فظلّ بارداً كقطعةٍ من الثلج واصابتهُ اعراضٌ أُخر ايقن معها انهُ قد أُصيب بسمّ الدآء . ولما سكن قليلاً وتغلب عقلهُ على ذلك الخوف المركب في كل انسان نهض فجلس الى مكتبهِ وكتب رسالتين احداهما الى امين ماله وكاتم اسرار حسابهِ والاخرى الى الدكتور ريبو وهو من اصدقآئهِ وهذا نصها

« ايها الصديق

انا مصابٌ بالدفثيريا وقد اعداني بها ولدٌ مريض وليس لي املٌ في الشفآء منها كما تعلم فاسألك ان تعجل في المجيء اليّ بصفة صديق لا بصفة طبيب مارسل اتيان »

فسار الدكتور ريبو وهو حزين آسف وعند ما وصل الى منزل

صديقهِ وجدهُ واقفاً يخطر في الغرفة وصرير اسنانهِ يسمع من الباب لشدة الحمى فلما رآهُ مدَّ اليهِ يدهُ مسلماً وقال لهُ انني دعوتك لا لمعالجتي لانني عالم بانني مائت لامحالة وان دآئي لا دوآء لهُ ولكن لأُفضي اليك بسرّ حياتي الوحيد وأكِل اليك انفاذ مشيئتي الاخيرة بامانةٍ وحزم . فاخذ الدكتور ريبو يدهُ وضغط عليها علامة الوداد الاكيد وقال لهُ تكلم يا صديقي وسلني ما تريد فأُقسم لك على انفاذهِ كما تحبّ . فقال مارسل انني اخذت جرثومة المرض الذي سيودي بحياتي في الليلة البارحة وانت ترى كم برَّح بي الى الآن فقل لي الى متى ابقى مالكاً رشدي . فتفرس فيهِ الدكتور ريبو وقال الى اربع وعشرين ساعة فيما اظن . فقال مارسل وهو الذي اراهُ واحسّ بهِ من نفسي وها اني اشرح لك امري

كتبت الى امين مالي ان يكتب لي وصيّةً على مقتضى الاصول المرعية تقوم انت على انفاذها وبموجبها أهب كل مالي للفتاة مارسل لكاير وهي الفتاة التي اتاح لي القدَر ان افديها بروحي . والسبب في ذلك انني ارتكبت جرماً عظيماً فقدّر لي ان اكفّر عنهُ بهذا الفدآء لان الفتاة هي ابنتي وقد احببت والدتها ثم فارقتها وتركتها عرضةً لكل شقآءٍ وبلآء بسبب وشايةٍ ونميمة وتلك المرأة هي التي رأيتها انت قرب سرير ابنتها وقد اصيبت بهياجٍ دماغيّ شديد اورثها مرضاً ثقيلاً انوط بك معالجتها منهُ ثم لا بدّ ان ألقي اليك ما تخفف بهِ مصابها بعد ذلك وهو تاريخ ما سلف بيني وبينها منذ عرفتها الى هذه الساعة . وذلك اني كنت منذ اربع سنوات مقيماً بغرفة صغيرة في الطبقة الخامسة من منزل بشارع سان جاك وامامي باب غرفة

تسكنها فتاةٌ وحدها وكانت تذهب كل يوم في الصباح فتأتي بشغلٍ لها وتعود مساءً ومعها ازهارٌ منشورة بقصد حبكها فأرى لها قامةً رشيقة ووجهاً صبيحاً مليحاً ولكنني ما سعيت الى التعرف بهذه الجارة ولا هي سعت الى معرفتي • وحدث في مساء احد الايام ان الحاجبة قرعت بابي وابلغتني ان الفتاة مصابة بألم شديد فلبست واخذت من صيدليتي زجاجة من سائل الايثير وقرعت باب جارتي ففتحت لي الحاجبة فدخلت فرأيت الفتاة مستندةً الى مخدتين فسألتها عن مرضها وسقيتها قطراتٍ من السائل فانتعشت ولما رأيت عندها سكوناً وراحة كتبت لها صنة دواء لليوم الثاني واوعزت الى الحاجبة بان تسقيها من السائل اذا تجددت نوبة المرض وعدت الى غرفتي

وبعد ايام عوفيت جارتي فأتت تقرع بابي ودخلت وقد صبغت وجهها حمرة الخجل فاجلستها على كرسي فجعلت تشكرني على معروفي وكان احمرارها يزداد حتى اوشك الحياء ان يحبس لسانها عن الكلام • وكان في يدها قطعة من الذهب تقلّبها من اصبعٍ الى اصبع ولا تعرف كيف تقدمها اليّ فعرفت سبب خجلها وضحكت وقلت لها بلطفٍ وبشاشة لقد ادركت ايتها السيدة ما هو غرضكِ من زيارتي واقول لكِ انني لا اقبل اجرة من جيراني وقد اكتفيت بشكرانكِ وحسبتهُ اكبر اجرةٍ لي عن صنيعي فلا تكوني خجلةً مني

فكررت شكرها وثناءها بعباراتٍ هي آية اللطف والحشمة وعند ما نهضت للانصراف قالت لي انك لا نستغني عندك ولا بد انك تحتاج الى

مثلي لترتيب امتعتك وغسل ملابسك وما شاكل ذلك من الشؤون المنزلية وانا عاملة ماهرة فاذا اردت فسلم كل ما تريد غسلهُ الى الحاجبة وانني آتي كل يوم وارتب مخدعك فقبلت وشكرتها فخرجت مسرورة • ومن ذلك الحين أخذت الالفة تصل اسبابها بيننا ثم تحوّلت الى حبٍّ فغرام فهيام وكان اسم الفتاة جنفياف وعمرها اذ ذاك سبع عشرة سنة ولها روآء جمالٍ لم يغيرهُ الشقآء والفقر والتعب وقد اعجبني منها على الخصوص ادبها وحيآؤها وصبرها على مكاره الحياة وما هي فيهِ من البشاشة والطلاقة مع انفرادها وعزلتها وكانت كل مسآءٍ تأتي الى غرفتي وتقوم بما لديها من العمل فاحسب الغرفة ترقص طرباً بوجودها وينير جمالها ظلام وحدتي فكانها ملكٌ ارسلهُ الله لتعزيتي • فسوّل لي الحبّ مع ما انا فيهِ من الانفراد في غربتي تلك ان اتخذها زوجةً لي فاستأجرت لي منزلاً في بعض احيآء المدينة ولم ألبث ان عُقِد لي عليها وعشت واياها عدة اشهر ونحن في اتمّ السعادة والغبطة

وفي تلك الاثنآء وردني كتابٌ من احد اقاربي يخبرني بان والدي الشيخ مريضٌ مرضاً ثقيلاً فلم اجد بدًّا من السفر لمشاهدتهِ والنظر في علاجهِ ان امكن وللحال تجهزت للرحيل فودعتني ودموعها تسقي خديها وقبلتني بحنوٍّ غريب كانها تراني لآخر مرةٍ في حياتها او حياتي وما زالت واقفةً تلوّح بمنديلها الابيض حتى غاب القطار عن بصرها

ولما وصلت الى وطني وجدت والدي سقيماً هزيلاً فجعلت اعالجهُ حتى قوي قليلاً واستردّ بعض العافية • وكنت اكتب كل يوم الى جنفياف فتجيبني على كل رسالة وفي صباح احد الايام وردني كتابٌ من احد معارفي

يذكر لي فيهِ انها قد لحقت بالنسآء الخليعات المنهتكات فهاج مني هائج الغضب وحب الانتقام وبعثت اليها برسالةٍ اوبخها فيها على خيانتها واخبرها انني لن اعرفها من بعد ولن ترى وجهي ولا رسائلي وختمت الرسالة بان قلت لها ان كتابي لا يصل اليها الا وانا قد قطعت اميالا كثيرة على ظهر البحر مسافراً الى حيث لا تعلم . ولما كان والدي قد تماثل من مرضه نهضت من ذلك اليوم وودعتهُ واناالا اعلم الى اين اذهب لاني رأيت الدنيا قد ضاقت في وجهي واتفق وجود سفينة مسافرة الى اميركا فركبت وانطلقت السفينة بنا تمخر عباب البحر حتى انتهت الى نيويرك . فاقمت بها نحو الشهرين وانا لا يطيب لي مقام ولا يهنأ لي عيش لما اثر عليَّ من تلك الصدمة وقد داخلني شيءٌ من الندم لانهُ خامر افكاري ان الامر قد يكون مكذوباً فيهِ فاخذت الوم نفسي على تسرُّعي في قطيعة من شاطرتها حظي وحياتي ولم يأخذني قرارٌ حتى صممت على الرجوع الى باريز والبحث عن الامر . ولما وصلت اليها انطلقت توًّا الى المنزل الذي كنت استأجرتهُ وسألت عن جنفياف فقيل لي انها قد اخلت المنزل منذ ثلاثة اشهر فباعت ما فيهِ من الاثاث وانطلقت بطفلها الى حيث لا يعلمون غير ان صاحبة المنزل قالت انها علمت منها ان لها عمةً في داخلية البلاد وانها ذهبت لتقيم عندها . فوقع هذا النبأ عليَّ وقوع الصاعقة لاني علمت انها بريئةٌ مما اتُّهمت بهِ ثم شعرت كأن فؤادي قد انتُزع من بين جنبيَّ وتبع الطفل الذي ولدتهُ بعد غيابي وجعلت مذ ذاك اتنسم اخبارها فلم اقف لها على اثر . وبعد ان طفت ما شآء الله في تفقد المظانّ التي قد تكون رحلت اليها ولم اصادف الا اليأس

رجعت الى باريز وعكفت على العمل علّي اجد بهِ راحةً لضميري وتخفيفاً لاحزاني حتى ساقني القدر الى معالجة ابنتي نفسها واراد الله تعالى وارادتهُ عدلٌ ان اضحّي حياتي في سبيلها دون ان ادري وها اني اموت فداءً عنها وعن قليل سيبلغ والدتها خبر شفآئها وخبر موتي في وقتٍ معاً . ولما كان الموت ولا بدّ آتياً والوقت اضيق من ان اعاود جنفياف واستغفرها عن زلتي بل الخجل وحدهُ كافٍ لان يقتلني عند اول نظرةٍ مني لها فاني اكلفك ايها الصديق ان تقوم مقامي بين يديها فتستغفرها عن ذنبي وتعزيها عن فقدي وقد اوصيت بمالي للطفلة وانا اتكل عليك في انفاذ وصيتي وأنتظر الموت براحة واثقاً بانني قد كفّرت عن جرمي موقناً بان جنفياف ستصفح عني من اجل ابنتها وان ابنتها لا تلعنني متى كبرت لانني اعطيتها الحياة مرتين وضمنت لها السعادة ورغد العيش . فتعاون يا صديقي مع امين مالي على تربيتها وتأديبها وابدل صداقتك لي بالعناية بها فاباركك حين مماتي كما كنت احبك في حياتي

وفي المسآء اشتدَّ المرض على مارسل ودخل في النزع حتى اذا طلع الفجر فاضت روحهُ محمولةً على بساطٍ من النور الى عالم الارواح ومقرّ الخلود

اما جنفياف فلم تستردّ رشدها الا بعد موتهِ بايام عديدة فتلطف الدكتور ريبو في ابلاغها خبر وفاتهِ وندامتهِ وما فعلهُ بتركتهِ فبكتهُ اشدَّ بكآءٍ وزادها موتهُ حسرةً على حسرة وكان جسمها قد انتحل وتواترت عليهِ الامراض بعد ما مرَّ بها من المحن فلم تلبث ان توفيت في شهر نوفمبر من

سنة ١٨٧١ نلحقت بزوجها ودُفنت بجانب مدفنه

***

ومن غرائب الاتفاق ان الدكتور ريبو تعرف بعد موت صاحبه بتاجر بلجيكي اتى باريس فقيراً وتعاطى الكتابة عند تاجر كبير يتجر ببضائع اميركا الجنوبية ومحاصيلها ثم اعتزل مخلفاً لكاتبه جميع انواع تجارته فاستلم الكاتب المحلّ وتزوّج ورُزق ولداً سماهُ ادمون . وكان ادمون يكثر من التردُّد الى منزل الدكتور فأحبَّ الفتاة مارسل وأحبتهُ ودرى الطبيب بما بينهما من الحب فاقترح على والد الفتى يوماً ان يزوجهُ بها فاستنكر الامر لاوّل وهلة وكبر عليهِ ان يزوج ابنهُ بفتاة يتيمة لا يعرف والدها وان تكن كاملة العلم والادب . ولكن لما قصّ عليهِ الدكتور قصتها كما تقدم طار عقلهُ ذهولاً ودهشةً لانهُ عرف ان جنفياف هي شقيقتهُ وكانت قد غادرت منزل والديه على اثر وفاتهما واتت باريز تطلب زرقاً نظيرهُ ولم يتسنَّ لهُ ان يراهما ولا تسنى لهما ان تراهُ فعاشا غريبين متباعدين في مدينة واحدة حتى حدث ما حدث وروى لهُ الدكتور ما روى فأحزنهُ وأفرحهُ . وبعد شهر عُقد اكليل ادمون ومارسل وكانا كل اسبوع يذهبان مع الدكتور ريبو الى المدفن فيضعان باقة من الورد على قبر جنفياف ويضع الدكتور خصلة من البنفسج على ضريح صديقه ويسقيها بدموعه وكان قد حلف منذ اليوم الذي توفي فيهِ حبيبهُ ان لا يعالج الا اطفال الفقراء الى ان اهاب به داعي المنون فاجتمع الحبيبان في دار البقاء